



العقل العربي 65

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل السادس عشر التحليل النفسي للتغريب

2. التاريخ المصري نموذجا

حصلت المواجهة الأولى بين العالم العربي وعفريت الغرب عام 1798 عندما وصل نابليون إلى القاهرة فاتحا دون مقاومة جدية. وكان العرب حتى ذلك التاريخ، متعلمين وأميين، يعيشون باعتقاد ساذج مفاده أن منهج حياتهم كان أفضل ما يمكن للجنس البشري الوصول إليه. وعلى الرغم من أن معظم العرب كانوا حتى ذلك تحت سيطرة الترك العثمانيين لما يقترب من ثلاثة قرون، فإن منطقا مقلوبا جعل العرب يقفون مع الترك موقفا واحدا بحجة أن «سيف الإسلام» الذي منع الكفار من الخروج من «دار الحرب» كان بيد «خليفة» النبي الذي يحامي عن كافة أرجاء «دار الإسلام» من اسطنبول.

لكن حالة الرضى تلك تصدعت بشدة بظهور نابليون في مصر. ونتج عن ذلك «أن أفاق العرب على واقع سيئ تقع فيه بلدانهم ومواردهم وحضاراتهم وذواتهم تحت تهديد أوروبا الغنية والقوية بما لا يصدق العقل والتي بدت وكأنها تقبض على العالم كله بما لها من ثقة عالية بالنفس وقوة شكيمة ورغبة في الاستحواذ»¹.

كانت استجابة العربي في بادئ الأمر يبدو فيها إما متكتما أو متشككا أو حانقا. ويروي التاريخ أن نابليون خلال إقامته في القاهرة أطلق بالونا كبيرا يعمل بالهواء الساخن، وكان هذا البالون آخر ما وصلت إليه إنجازات الحضارة الفرنسية في ذلك الحين. لكن رد فعل المصريين كان مختلفا جدا عما توقعه الفرنسيون. وعبر عنه أحد المؤرخين المصريين بقوله: «اخترق المصريون وحشا علا في السماء بنية الوصول إلى الله وإهانته. لكنه لم

(1) برنارد لويس (Bernard Lewis): الشرق الأوسط والغرب: ص45.

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

يصل إلا إلى ارتفاع منخفض وسقط عاجزا على نحو مضحك»، ثم ختم كلامه بالغيظ نفسه بعبارة محترمة يمدح بها المسلم الأوروبيين حين يرى تطبيق العلم على المستوى الصناعي: «ما بقي شيء لم تنجزوه غير إيقاف الموت»، ومعنى هذا أن الموت والحياة الأخروية (مملكة الله) هي الأمر الوحيد الذي ينبغي الاهتمام به.

لكن المصريين ما لبثوا غير قليل حتى بدؤوا يغيرون موقفهم شيئا فشيئا. فما أن زالت آثار الصدمة الأولى، كانت الاستجابة الأولى تتمثل في الإعجاب المترافق مع رغبة مفهومة جاهزة للتعلم من الغرب. فعلى الرغم من كبرياء العرب وافتخارهم بأنفسهم، فإنهم كانوا ولا زالوا شعبا عمليا يسعى إلى التعلم من أي كان إذا شعر بأن التعلم مفيد له، وكان لسان حال المصريين حينها يقول: (لقد هزمتنا الفرنسيون لأنهم يعلمون أمورا لا نعلمها. إذن ينبغي علينا أن نتعلم منهم). وبعد فترة مدهشة في قصرها، وخلال سبعة أعوام من مغادرة القوات الفرنسية لمصر، أرسل محمد علي باشا حاكم مصر مجموعة من الطلاب للدراسة في أوروبا. حتى أن هذه المجموعة لم تتجه إلى فرنسا وإنما إلى إيطاليا. وبحلول عام 1818 كان هنالك 23 طالبا مصريا يدرسون في أوروبا. وفي عام 1826 غادرت مصر مجموعة هي الأولى من عدة مجموعات كبيرة من الطلاب، وتكونت من 44 طالبا توجهوا إلى فرنسا للدراسة فيها.

لم يكن ذلك كل ما قام به محمد علي باشا في سبيل تحقيق المساواة مع الغرب؛ حيث قام بمحاولات شجاعة، وإن لم تكن ناجحة، لتحقيق تقدم صناعي في مصر من خلال استحضار النباتات المستخدمة في النسيج وبناء مصانع السكر. كما عين المستشارين الأجانب في الإسكندرية كأعضاء في مكتب الصحة بهدف محاربة الأوبئة التي دمرت مصر عاما بعد عام، وكان من الممكن الاستدلال على نجاح هذا المسعى من خلال ملاحظة الزيادة السريعة في عدد سكان مصر. واستجلب محمد علي الكثير من الأساتذة للكليات العسكرية المنشأة حديثا، وأسس معهدا علميا وكلية للطب أشرف عليها مدير فرنسي. كما أنشأ محمد علي مطبعة خرجت منها ترجمات للكتب التقنية الأوروبية وصحف

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

باللغتين العربية والفرنسية. وقام محمد علي بتحويل الإسكندرية إلى مدينة حديثة تماثل مرسيليا و نابولي. وكان مسكونا برغبة تقليد الغرب إلى درجة أنه قال ذات يوم قبل وقت يسير من وفاته أنه وجد مصر «بربرية تماما» وأنه حاول تحسين أحوالها. وبينما كان محمد علي منهمكا في هذه المشاريع، بدأت الطبقات العليا في مصر بتعلم الفرنسية ومحاكاة عادات وتقاليد الأوروبيين الذين جذبتهم مصر لما فيها من فرص عمل غير عادية. أضف إليهم ممثلي الحكومات الأوروبية. ولم يمض وقت طويل حتى نمت طبقة مرموقة من الأجانب في الإسكندرية والقاهرة. وكانت قالبا يحاكيه أغنياء المصريين إن كانت لديهم القدرة المالية على ذلك. ولم يكن هنالك شك لدى المصريين جميعهم حول تفوق أي شيء يطرحه الأوروبيون. ومن كان لديه شك وقام بالتعبير عن مشاعره فإن مصيره إلى الإسكات والاستهزاء.

أما الطبقات السفلى من المصريين. حيث لم يكن هنالك من طبقة وسطى ذات أهمية. فقد وقفت دون فهم لما يجري من تقدم. فبالنسبة لهم كان «الفرانك». كما كانوا يطلقون على المسيحيين الأوروبيين دون تمييز بين جنسياتهم. لا يزالون في نظرهم على ما كانوا عليه طيلة قرون: كفارا، ملحدين، تعوزهم الحشمة والأخلاق. كلابا، أشرارا. لا يستحقون غير البغض أو ربما المواساة لجهلهم. وكان من المستحيل عليهم أن يفهموا سبب صداقة هؤلاء الأجانب التعساء للخديوي والباشاوات. وأكثر من ذلك: تحمس النبلاء المصريين المسلمين لمرافقتهم. ومحاكاتهم في اللباس. والتكلم بلغتهم. والأكل في بيوتهم. وتفضيل أساليبهم في الحياة على ما ورثوه من أسلافهم.

أما موقف الأجانب من الأوروبيين فكان شعورا سعيدا بالتفوق على الطبقة العليا من المصريين. وهي طبقة كانت تشاطرهم الكره التقليدي للفلاحين والجهلة الذين كانوا يشكلون الجماهير غير المتأثرة بالغرب في المدن. وعلى الرغم من وجود بغضاء أكيدة أذكاها بين الطبقة العليا المصرية نشوء طبقة تعلوهم من الأوروبيين. فإن تكنولوجيا الغرب وأدواته يسندها جاه الفاتحين أثبتت أنها لا تقاوم. وبحلول النصف الثاني من

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

القرن التاسع عشر في مصر وسوريا والعراق. على الترتيب. «كان للملابس الغربية. والأثاث الغربي. والرياضات الغربية. واللغات الغربية. إغراء لا يقاوم ترك آثارا على كل عربي أو مواطن أصلي»¹.

استمرت عملية أوربة مصر. مع بعض التوقفات. في ظل خلفاء محمد علي باشا. ففي عهد الخديوي المتعلم على أيدي الفرنسيين إسماعيل باشا (حكم 1863-1879) اكتمل إنشاء قناة السويس. وحضر احتفالات افتتاح القناة عام 1869 أكثر من ستة آلاف ضيف بمن فيهم ملوك وملكات يندر اجتماعهم حتى في باريس. وبالإضافة إلى تكلفة القناة (11.5 مليون جنيه إسترليني) أنفق إسماعيل باشا مليوناً آخر على مراسيم الافتتاح. لكن لم يمض وقت طويل قبل أن ينتهي شهر العسل بين المصريين والأوروبيين. إذ جاء عام 1876 لتبلغ فيه الديون المتراكمة على ميزانية إسماعيل باشا ما يقترب من 100 مليون جنيه إسترليني. وأصرت القوى الأوروبية على أكثر وأكثر من السيطرة على مصر لحماية استثماراتها. وأكد إسماعيل باشا دون جدوى. كما كان يحلو له أن يفعل دائماً. على أن «مصر جزء من أوروبا». ولم يفلح إرسال الطبقة العليا المصرية أبناءها للدراسة في أوروبا وسعيها لمرافقة من يسكن أو يزور القاهرة أو الإسكندرية من الأوروبيين. وبدأ اللجام الأوروبي يؤدي خد الجمل المصري.

أدى ذلك الوضع إلى بروز أحزاب سياسية. والأحزاب في أساسها مؤسسات مستقاة من الغرب. ومن بين هذه المجموعة العسكرية للكولونيل أحمد عرابي باشا المعروفة باسم «المصريين الخالص»؟؟؟ والتي اعتنقت أفكاراً وطنية. وهي أفكار مستقاة من الغرب أيضاً. فكان أن استخدمت بريطانيا تزايد الوطنيين في الإسكندرية كذريعة لاحتلال مصر في تموز 1882. وإعادة تأسيس سيطرة أوروبية على البلاد. وأصبحت مصر بذلك فعلياً مستعمرة بريطانية يحكمها السير ايفلين بيرينغ (اللورد كرومر في ما بعد) لوحده من عام 1883 إلى

(1) تشارلز كريمينز (Charles D. Cremeans): العرب والعالم، ص53.

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

1907. وظهر تحسن الأوضاع في هذه الفترة من خلال الزيادة السريعة في السكان من 6.8 مليون عام 1883 إلى 12.3 مليون عام 1914.

يمكن اعتبار التطورات في مصر في القرن التاسع عشر نموذجا للعلاقات العربية الأوروبية في ذلك القرن: ففي كل مكان من العالم العربي تلا الظهور الأول المخيف لأوروبا الاستقبال المتحمس لهداياها. والذي جعل العرب شغوفين بامتلاك السحر الذي تقدمه أوروبا. في هذه المرحلة المبكرة بدت أوروبا وكأنها عفريت الثروة: إذ قدمت كمية كبيرة من كل شيء في كل المجالات: السكان. الصحة. التمويل الحكومي. النقل. التجارة. الثروة: لكن لم تمر فترة طويلة ليتبين بأن ذلك كله لم يكن بالمجان: فعندما عبر العفريت البحر الأبيض المتوسط جلب معه الكثير لكنه طالب في المقابل بالتبعية. أو ما اصطلح عليه هو «بالسيطرة». في هذه المرحلة فرضت الروح العربية نفسها: إذ انتحلت صفة لم يكن الغرب يفكر في تقديمها للعرب. وهي فكرة الوطنية التي تبين حالا بأنها معدية وفعالة. وكان من العواقب الكبرى لهذه الفكرة أنه لم يلزم وقت طويل ليتولد شعور بعدم التسامح مع السيطرة الأوروبية لدى قطاعات متزايدة من الشعوب العربية. وما تلا ذلك من صراع في سبيل تحقيق الاستقلال الوطني. والذي بدأ في أوقات مختلفة وأماكن مختلفة بشدة متباينة وطرق متنوعة. إنما هو جزء من التاريخ العربي المعاصر وخارج عن موضوع البحث: لكن نجاح هذا الصراع يمكن الإشارة إليه بثلاثة أرقام وثلاثة تواريخ: فمع نهاية الحرب العالمية الأولى لم يكن ثمة أي دولة عربية مستقلة استقلالاً كاملاً: ثم جاءت نهاية الحرب العالمية الثانية والدول العربية المستقلة اثنتان: السعودية واليمن: ثم تسارع معدل الاستقلال لتكون الدول العربية جميعها كيانات سياسية ذات سيادة مع حلول عام 1971.

إن عملية إنجاز الاستقلال كانت الميدان الذي كشف فيه عفريت الغرب نفسه للعرب. وبالفعل. كان هنالك غموض في الطريقة التي تدبر فيها الغرب زيادة نفوذه الثقافي بينما كان نفوذه السياسي يتقهقر. وذلك لأنه ما من شك في أن تناقص التبعية السياسية للغرب في معظم الدول العربية جاء مترافقا بازدياد في نفوذه الثقافي. وكانت نتيجة ذلك

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

أن عددا متزايدا من المثقفين العرب بدأ يشعرون أن نجاح الدول العربية في تحقيق الاستقلال السياسي عن القوى الغربية قد كلفهم زيادة في التبعية الثقافية لها. إن هذا التحول في التبعية من المجال السياسي إلى المجال الثقافي. وعلى نحو أخص: ازدياد الوعي بالثقافة الغربية. أو الاحتكاك بها. أدى إلى غمر العرب بمجموعة جديدة من المشاكل النفسية.

يفضي الصراع لتحقيق الاستقلال السياسي في العادة إلى توحيد الشعوب المضطهدة: هذه الملاحظة العامة أثبتت صوابها مرارا وتكرارا في العديد من الدول العربية. لقد كان الاستقلال السياسي قضية عظيمة هيمنت على غيرها؛ وحجبت الاختلافات الداخلية والتنوعات الثقافية المهمة. لكن ما أن تحقق الاستقلال وغاب عن الساحة العدو القديم ممثلا بالقوة الاستعمارية. حتى برزت إلى السطح الاختلافات الثقافية الداخلية وأصبحت عاملا مثيرا للانقسام على نحو خطير. وفي كل دولة من الدول العربية اتجهت القيادة السياسية إلى البحث عن قضية خارجية جديدة بإمكانها بعث الروح في الطموحات الوطنية من جديد؛ فتم استخدام القضية الفلسطينية وهدف إزالة إسرائيل من الوجود. في هذا المضمار. في الدول العربية جميعها منذ عام 1948. وما لم تحل قضية شركات النفط الأجنبية فإنها ستكون في المستقبل مشكلة لا يمكن السكوت عليها أكثر فأكثر. أما على الجانب الإيجابي. فهناك دائما افتتان العقل العربي بفكرة الوحدة العربية. سواء أكانت على الشكل الذي يدعو إليه القوميون العرب. أو على نحو معتدل باتحاد فيدرالي يجمع دولتين عربيتين أو أكثر.